السعي المشكور

تأليف

محمد شومان الرملي

طبعة جديدة منقحة ومزيدة

١٤٣٧ هـ

السعي المشكور

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد، فهذا كتاب «السعي المشكور»، ذكرت فيه شروط الأعمال المتقبلة الصالحة، وأجرها في الدنيا والآخرة، وفوائد في الباب كثيرة نافعة.

وذلك ترغيبًا للعباد في عمل الصالحات، بوازع الإيمان، وعلى وجه الإحسان، وتبيانًا لشأن الأعمال الصالحة، وأنها هي النافعة في الآخرة، وصاحبها هو الفائز بالثواب الكريم، والفضل العظيم، والنعيم المقيم.

وتحذيرًا من فوات فرصة الإمكان، قبل التجهز للقاء الله بصالح الأعمال.

فإن مَنْ كان هذا حاله، فالندم حليفه من أول ساعة يفارق فيها الحياة الدنيا، كما قال الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون:١٠].

وعند حمل جنازته يقول: «يَا وَيْلِي أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِي؟»(١).

---

(١) أخرجه النسائي (٤١/٤) وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني على شرط مسلم في «أحكام الجنائز» (ص ٧٢). وبلفظ: «يَا وَيْلَهَا أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟» أخرجه البخاري (١٨٢/٣ و١٨٤ و٢٤٤ ـ فتح)، وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفي القبر عندما يرى عمله الخبيث، وينزل به العذاب، ويُفتح له بابٌ من النار، ويُمهد من فُرُشِ النار، يقول: «رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وعند رؤية العذاب تعظم ندامته، وتظهر خسارته، كما قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ الْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [يونس:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:١٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر:٢٣-٢٤].

وإذا دخل النار ـ والعياذ بالله تعالى ـ فهناك الندامة الكبرى، والحسرة العظمى، قال الله تعالى:

---

(١) حديث صحيح على شرط الشيخين، من رواية البراء بن عازب رضي الله عنه، وسيأتي إن شاء الله تعالى.

﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٧].

فنسأل الله عز وجل التذكر قبل الفوات، والتيقظ قبل الممات، وأن لا يجعلنا من أهل الندامة، بل من المؤمنين الذين قد عملوا الصالحات، وسارعوا بالخيرات، وفازوا بالجنات.

وهذا ـ والله ـ لا يكون إلا بتوفيقه وفضله ورحمته، فهو سبحانه الذي جعل عملهم مبرورًا، وسعيهم مشكورًا، (ولقاهم نضرة وسرورًا، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا).

وكتب

محمد شومان

١٠/ ذو الحجة/ ١٤١٠هـ

الباب الأول

في

تعريف السعي المشكور

وبيان شروطه

تعريف السعي المشكور
وبيان شروطه

السعي المشكور: هو العمل الصالح الذي أمر الله تعالى به عباده، وهو المقبول عنده تعالى، والمجزي عليه بالثواب الكثير، والعطاء الكبير، والأجر العظيم، الحسنة بعشر أمثالها، ويضاعف الله لمن يشاء.

قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦]

وشروطه هي:

الأول: الإيمان. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه،

ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، حلوه ومره، وبأن ما أصاب أحدًا لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء:١٢٤].

قال الشنقيطي(١): فقَيَّد ذلك بالإيمان، ومفهومُ مخالفتِه أنه لو كان غير مؤمن لما قُبِل منه ذلك العمل الصالح.

وقال ابن سعدي(٢): **(وهو مؤمن)**، وهذا شرط لجميع

---

(١) «أضواء البيان» (٣/٣٥٣).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (١/٤١٥).

الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِع أصلها، وكبناء بُنِي على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبْنَى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أُطْلِق، فإنه مقيد به.

وقال في موضع آخر(١): الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تُسَمَّى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مُقْتَضٍ لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. اهـ.

وقال الله تعالى في عمل غير المؤمن: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

---

(١) «التيسير» (٨٣/٣).

فصل

الشرط الثاني: الإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥].

قال ابن سعدي[١]: **(وما أمروا)** في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا **(الله مخلصين له الدين)**؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، **(حنفاء)**؛ أي: معرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخَصّ الصلاة والزكاة بالذكر مع أنهما داخلان في قوله: **(ليعبدوا الله مخلصين)**، لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

(وذلك)؛ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو **(دين القيمة)**؛ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطُرق موصلة إلى الجحيم. اهـ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٢٤٢).

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أَرأيتَ رجلًا غَزَا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»(١).

قال المناوي(٢): (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا)؛ بأن لا يشرك العامل في عبادة ربه أحدًا. (وابتُغِي به وجهُه)؛ فمن أراد بعمله الدنيا وزينتها دون الله والآخرة فحظه ما أراد، وليس له غيره. اهـ.

والإخلاص: تصفية العمل من كل شَوْبٍ؛ أي: لا يُمَازِجُ عمله ما يَشُوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلب التَّزَيُّنِ في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم

---

(١) أخرجه النسائي (٦/٢٥)، وجود إسناده الحافظ في «الفتح» (٦/٢٨)، والمنذري في «الترغيب» (١/٥٥)، وأقره الألباني.

(٢) «فيض القدير» (٢/٢٧٥).

حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو: إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان. قاله ابن القيم[1].

وفي «التبصرة» لابن الجوزي[2]:

لِلَّهِ دَرُّ أُناس أخلصوا العَمَلَا
على اليقين ودانوا بالذي أُمِرُوا
أَولاهمُ نِعَمًا فازداد شكرهمُ
ثُمَّ ابْتَلاهُمْ فَأَرْضَوْه بما صبروا
وَفَّوْا له ثم وَافَوْهُ بما عملوا
إذًا سيوفيهمْ يومًا إذا نُشِروا

فصل

الشرط الثالث: المتابعة للنبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٩٢).

(٢) (١/٤٨٤).

﴿فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

قال النووي(٢): قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات.

قال: وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الاقتصاد في السنة

---

(١) أخرجه البخاري (٥/٣٠١ ـ فتح)، ومسلم (١٧١٨)، واللفظ له، وغيرهما. ولهما بلفظ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ». لكن عند البخاري: «مَا لَيْسَ فِيهِ».

(٢) «شرح مسلم» (١٢/١٦).

أحسن من الاجتهاد في البدعة[1].

وقال ابن كثير في تفسير الآية[2]: قوله: **(فليحذر الذين يخالفون عن أمره)**؛ أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتُوزَن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قُبِل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا ما كان، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ».

أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا **(أن تصيبهم فتنة)**؛ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، (أو يصيبهم عذاب أليم)؛ أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك. اهـ

قلت: وليس هناك ما يمنع من كون المقصود بالعذاب الأليم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أيضًا.

---

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (رقم ٣٧).

(٢) «تفسيره» (٣/٣٠٧).

فصل

وقد جمع الله تبارك وتعالى هذه الشروط الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩][١].

أما «الإخلاص»، ففي قوله تعالى: **(ومن أراد الآخرة)**، فإرادة الآخرة: هي صلاح التوجه والقصد، وهو الإخلاص.

وأما «المتابعة»، ففي قوله تعالى: **(وسعى لها سعيها)**.

قال ابن كثير[٢]: أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ.

وأما «الإيمان»، ففي قوله تعالى: **(وهو مؤمن)**.

قال الشنقيطي[٣]: في الآية الدليل على أن الأعمال

---

(١) وهذا الكتاب بُنِي على هذه الآية، ومنها استُلَّ عنوانه.

(٢) «تفسيره» (٣/٣٣).

(٣) «أضواء البيان» (٣/٤٩٢).

الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله؛ لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، لأنه شَرَطَ في ذلك قوله: **(وهو مؤمن)**.

وقال ابن رجب[1]: الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أُوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلام الطيب، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[2]. ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه، من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكل عليه.

فصل

وذكر الله عز وجل شرطي «الإخلاص» و«المتابعة» في قوله:

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ٢٤٠).

(٢) متفق عليه.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

قال ابن كثير[١]: (**فمن كان يرجو لقاء ربه**)؛ أي: ثوابَه وجزاءَه الصالح، (**فليعمل عملًا صالحًا**)؛ ما كان موافقًا لشرع الله. (**ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا**)، وهو الذي يُرَاد به وجهُ الله وحده لا شريك له، وهذان رُكْنا العمل المُتَقَبَّل: لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ. اهـ.

وبهذين الشرطين فسر العلماء «العمل الحسن» في مثل قول الله عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

قال ابن كثير[٢]: قوله: (**ليبلوكم**)؛ أي: ليختبركم، (**أيكم أحسن عملًا**)، ولم يقل: أكثر عملًا، بل (**أحسن عملًا**)، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز

(١) «تفسيره» (١٠٨/٣).

(٢) «تفسير» (٤٣٨/٢).

وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حَبِط وبَطَل. اهـ.

قال شيخ الإسلام[1]: كان أئمة السلف يَجمعون هذين الأصلين؛ كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧، والملك:٢]، قال: أخلصه وأصوبه. فقيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل. وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[2].

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يُقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يُقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

ورَوَيا عن الحسن البصري مثله، ولفظه: «لا يصلح»

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٧٧/٢٨).

(٢) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠]. كذا في «مدارج السالكين» (٨٩/١).

مكان «يقبل». انتهى كلام شيخ الإسلام.

وقال الشنقيطي[1]: ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن القيم[2]: إسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته.

❑❑❑❑❑

---

(١) «أضواء البيان» (١١/٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٩٠/٢).

الباب الثاني

في

بيان أن الله عز وجل شكور

بيان أن الله عز وجل شكور

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ [فاطر:٢٩-٣٠].

قال ابن كثير[١]: **(ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله)**؛ أي: ليوفيَهم ثواب ما فعلوه ويضاعفَه لهم بزيادات لم تخطر لهم، **(إنه غفور)**؛ أي: لذنوبهم، **(شكور)** للقليل من أعمالهم. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ [الشورى:٢٣].

وقال سبحانه على لسان أهل النعيم المقيم والفضل الكبير: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ

---

(١) «تفسيره» (٥٥٤/٣).

شَكُورٌ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر:٣٤-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن:١٧].

قال ابن سعدي(١): (والله) تعالى (شكور)، يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وأنواع التكاليف الثقال، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه(٢). اهـ

وقال الله تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء:١٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ

---

(١) «تفسيره» (٥/٢٥٧).

(٢) «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»، نسبه بعض العلماء بهذا اللفظ إلى النبي ﷺ! ولم أجده، وإنما الوارد معناه، وبلفظ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بَدَّلَكَ اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ». أخرجه أحمد (٥/٣٦٣)، وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

﴿أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٥٨].

قال ابن سعدي[1]: (**فإن الله شاكر عليم**)، الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى: الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتثل طاعته أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادةَ بركةٍ ونماء، وفي أعماله زيادةَ توفيق.

ثم بعد ذلك يَقْدَم على الثواب الآجل عند ربه كاملًا مُوَفَّرًا، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شُكره لعبده: أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن تقرب منه شبرًا، تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة[2]، ومن

---

(١) «تفسيره» (١٢٢/١).

(٢) كما في «الصحيحين» وغيرهما، من حديث أنس رض الله عنه وغيره، عن النبي ﷺ يرويه عن ربه، قال: «إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

عامله، ربح عليه أضعافًا مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل بحسب نيته وإيمانه وتقواه ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم. اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ، فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»(1).

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا [الْكَلْبَ] مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ»(2).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

وقال ابن القيم[1]: هو [سبحانه] أولى بصفة الشكر من كل شكور، بل هو الشكور على الحقيقة، فإنه يعطي العبد ويوفقه لما يشكره عليه، ويشكر القليل من العمل والعطاء، فلا يستقله أن يشكره، ويشكر الحسنة بعشر أمثالها، إلى أضعاف مضاعفة، ويشكر عبدَه بقوله: بأن يثني عليه بين ملائكته وفى ملإه الأعلى، ويُلقي له الشكر بين عباده، ويشكره بفعله: فإذا ترك له شيئًا أعطاه أفضل منه، وإذا بذل له شيئًا رده عليه أضعافًا مضاعفة، وهو الذي وفقه للترك والبذل، وشكره على هذا وذاك.

ولما ترك الصحابة ديارهم وخرجوا منها في مرضاته أعاضهم عنها أن مَلَّكهم الدنيا وفتحها عليهم.

ولما احتمل يوسف الصديق ضيق السجن شكر له ذلك بأن مكن له فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء.

ولما بذل الشهداء أبدانهم له حتى مزقها أعداؤه شكر لهم ذلك بأن أعاضهم منها طيرًا خضرًا أقر أرواحهم فيها، تَرِد

---

(١) «عدة الصابرين» (ص ٢٤٤-٢٤٦) باختصار.

أنهار الجنة وتأكل من ثمارها إلى يوم البعث، فيردها عليهم أكمل ما تكون وأجمله وأبهاه.

ولما بذل رسله أعراضهم فيه لأعدائهم فنالوا منهم وسَبُّوهم أعاضهم من ذلك بأن صلى عليهم هو وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سمواته وبين خلقه، فأخلصهم بخالصة ذكرى الدار.

ومن شُكره سبحانه: أنه يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، فلا يُضَيِّع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه[1].

ومن شُكره: أنه غفر للمرأة البَغِيّ بسقيها كلبًا كان قد جَهَده العطش حتى أكل الثرى[2]، وغفر لآخر بتنحيته غصنَ

---

(١) كما قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

(٢) كما في «الصحيحين» واللفظ لمسلم: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا، فَغُفِرَ لَهَا». البَغِيّ: الزانية. و(يُطيف ببئر)؛ أي: يدور حولها. و(أدلع =

شوك عن طريق المسلمين[1].

فهو سبحانه يشكر العبد على إحسانه لنفسه، والمخلوق إنما يشكر من أحسن إليه، وأبلغ من ذلك أنه سبحانه هو الذي أعطى العبد ما يُحْسِن به إلى نفسه، وشَكره على قليله بالأضعاف المضاعفة، التي لا نسبة لإحسان العبد إليها، فهو المحسن بإعطاء الإحسان وإعطاء الشكر، فمن أحق باسم الشكور منه سبحانه!!

ومن شُكره سبحانه: أنه يُخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يُضيع عليه هذا القدْر.

ومن شُكره سبحانه: أن العبد من عباده يقوم له مقامًا يرضيه بين الناس فيشكره له، ويُنَوِّه بذكره، ويخبر به ملائكته وعباده المؤمنين، كما شكر لمؤمن آل فرعون ذلك المقام، وأثنى به عليه، ونَوَّه بذكره بين عباده، وكذلك شكره لصاحب (**يس**) مقامَه ودعوتَه إليه.

= لسانه): أخرجه من شدة العطش. والمُوق: الخف. و(نزعت له بمُوقها)؛ أي: استقت له بخفها. «نووي» مختصرًا.

(١) ورد هذا في حديث متفق عليه، وقد تقدم قبل قليل.

فلا يهلك عليه بين شكره ومغفرته إلا هالك، فإنه سبحانه غفور شكور، يغفر الكثير من الزلل، ويشكر القليل من العمل.

ولما كان سبحانه هو الشكور على الحقيقة كان أحب خلقه إليه من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه من عَطّلها واتصف بضدها، وهذا شأن أسمائه الحسنى: أحب خلقه إليه من اتصف بموجبها، وأبغضهم إليه من اتصف بأضدادها. اهـ.

وقال في «قصيدته»:

وهو الشكور فلن يُضَيِّع سعيهم
لكن يضاعفه بلا حسبانِ
ما للعباد عليه حق واجبٌ
هو أوجب الأجر العظيم الشانِ
كلا ولا عمل لديه ضائعٌ
إن كان بالإخلاص والإحسانِ

إنْ عُـــذِّبوا فبعـــدله أو نُعِّمـــوا

فبفضــــله والحمـــد للمنـــانِ

قال ابن سعدي شارحًا هذه الأبيات[1]:

«الشاكر. الشكور»: الذي لا يُضِيع سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة، فإن الله لا يُضِيع أجر من أحسن عملًا[2]، وقد أخبر في كتابه وسنة نبيه [ﷺ] بمضاعفة الحسنات؛ الواحدة بعشر، إلى سبعمئة، إلى أضعاف كثيرة، وذلك من شكره لعباده، فبعَيْنه ما يتحمل المتحملون لأجله، ومن فعل لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن ترك شيئًا لأجله عوضه خيرًا منه، وهو الذي وفق المؤمنين لمرضاته، ثم شكرهم على ذلك وأعطاهم من كراماته، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وكل هذا ليس حقًّا واجبًا عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه، جودًا منه وكرمًا،

---

(١) «الحق الواضح» (ص ٧٠-٧٢).

(٢) كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف:٣٠].

ولهذا قال المصنف:

مـــا للعبـــاد عليـــه حـــق واجـــبٌ

هو أوجب الأجـر العظـيم الشـانِ

وهذا القيد الذي قيده المصنف أحسن من إطلاق من قال:

مـــا للعبـــاد عليـــه حـــق واجـــبُ

كلا ولا ســـــعي لديـــــه ضـــــائعُ

وكذلك تقييد المؤلف للسعي بقوله:

كلا ولا ســـــعي لديـــــه ضـــــائعٌ

إن كان بـــالإخلاص والإحســـــانِ

أي: جامعًا للإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول، وبذلك يكون العمل صالحًا، كما قال في موضع آخر:

وقيـــام ديـــن الله بـــالإخلاص والـــ

إحســـــان إنهمـــــا له أصـــــلانِ

فما أصاب العبادَ من النعم ودفع النِّقم فإنه من الله تعالى، فضلًا منه وكرمًا، وإن نَعّمهم فبفضله وإحسانه، وإن عذبهم فبعدله وحكمته، وهو المحمود على جميع ذلك. اهـ.

❑❑❑❑❑

الباب الثالث

في

جزاء السعي المشكور في الدنيا والبرزخ والآخرة

جزاء السعي المشكور
في الدنيا

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

قال القاسمي(١): هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحًا، وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة.

قال المهايمي: أي فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعساره، إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته. والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه، إذ يزداد حرصًا وخَوْفَ فوات. ويُجزون بالأحسن في الآخرة، فلا يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ

---

(١) «محاسن التأويل» (١٥٦/١٠).

ﭐلدُّنۡيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]. بل يُكَمَّل جزاءُ أعمالهم الأدنى بحيث يُلحق بالأعلى. انتهى.

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يُستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد، والتنوّر بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها. هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن، والثواب الأوفى. انتهى كلام القاسمي.

وقال ابن سعدي[(١)]: فأخبر تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح، المصلح للقلوب والأخلاق، والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يَتَلَقَّوْن فيها جميعَ ما يَرِد

---

(١) أول رسالة «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

يَتَلَقَّوْن المحابّ والمسارّ بقَبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هي ثمراتها.

ويَتَلَقَّوْن المكاره والمضارّ والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة، والتجارب والقوة، ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب، أمورًا عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه. اهـ.

وقال الرازي[1]: اعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه:

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١١٥).

الأول: أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب، كان راضيًا بكل ما قضاه وقدره، وعلم أن مصلحته في ذلك، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول، فكان أبدًا في الحزن والشقاء.

وثانيها: أن المؤمن أبدًا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن، ويقدر وقوعها، وعلى تقدير وقوعها يرضى بها، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بخلاف الجاهل، فإنه يكون غافلًا عن تلك المعارف، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه.

وثالثها: أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، أما قلب الجاهل فإنه خالٍ عن معرفة الله تعالى، فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا.

ورابعها: أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة، فلا يَعظم فرحُه بوجدانها وغمه بفقدانها، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها، فلا جرم يَعظم فرحُه

بوجدانها وغمُّه بفقدانها.

و**خامسها**: أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير، سريعة التقلب، فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه.

واعلم أن ما كان واجب التغير فإنه عند وصوله إليه لا تنقلب حقيقته، ولا تتبدل ماهيته، فعند وصوله إليه يكون أيضًا واجب التغير، فعند ذلك لا يَطبع العاقلُ قلبَه عليه، ولا يُقيم له في قلبه وزنًا، بخلاف الجاهل، فإنه يكون غافلًا عن هذه المعارف، فيَطبع قلبَه عليها، ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه، فعند فوته وزواله يحترق قلبه، ويَعظم البلاء عنده.

فهذه وجوه كافية في بيان أن عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر. اهـ.

وقال ابن القيم[1]: وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٥٩).

﴿...كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره، بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب. وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وإذا كانت حياةُ القلب حياةً طيبةً تَبِعَتْهُ حياةُ الجوارح، فإنه مَلِكُها، ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضَّنْك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ [النحل:٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣].

فذِكْر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامنٌ لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضَّنْك في الدنيا والآخرة. اهـ.

فصل

وقال ابن سعدي[(١)] في قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل:٣٠]: **(للذين أحسنوا)**، في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم **(في هذه الدنيا حسنة)**؛ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينةُ قلب، وأمن وسرور. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ

(١) «تفسيره» (٣/٥٧).

ﭐلۡعَظِيمُ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأعراف:٩٦].

قال ابن سعدي[1]: ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا، صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم **(بركات من السماء والأرض)**، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نَصَب.

قال سيد قطب[2]: فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال.

❑❑❑❑❑

(١) «تفسيره» (١٣٧/٢).

(٢) «الظلال» (٥٨٧/٣-٥٨٨).

جزاء السعي المشكور
عند الموت وفي القبر

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۞ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣٠-٣١].

قال ابن سعدي[١]: يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تنشيطهم، والحث على الاقتداء بهم، فقال: (**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا**)؛ أي: اعترفوا ونطقوا ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم، علمًا وعملًا، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة. (**تتنزل عليهم الملائكة**) الكرام؛ أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار، (**ألا تخافوا**) على ما يستقبل من أمركم، (**ولا تحزنوا**) على

---

(١) «تفسيره» (٣٩٦/٤-٣٩٧).

ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل، **(وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون)**، فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولًا.

ويقولون لهم أيضًا مثبتين لهم ومبشرين: **(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)**، يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويثبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصًا عند الموت وشدته، والقبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط. اهـ

وقال ابن كثير[(١)]: **(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)**؛ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار: نحن كنا أولياءكم؛ أي: قرناءكم في الحياة الدنيا، نسددكم ونوفقكم، ونحفظكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم. اهـ

---

(١) «تفسيره» (٤/٩٩).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَـمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ به في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثًا، فقال:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» مرتين، أو ثلاثًا.

ثم قال: « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ » ثلاثًا.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ(١) مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية: الْمُطْمَئِنَّةُ)، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، (وفي رواية: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ

---

(١) هو ما يخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة. «نهاية».

وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ [عَزَّ وَجَلَّ]: ﴿**تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ**﴾ [الأنعام:٦١]، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ ـ يعني بها ـ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ. ﴿**وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ**﴾ [المطففين: ١٩-٢١]. فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ،

فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [إبراهيم:٢٧]. فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قال: «وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ

مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا [كَانَ] مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا. فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ».

قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ (وفي رواية: الْفَاجِرَ) إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[1] مِنَ النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

قال: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[2] الْكَثِيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتُقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ

---

(١) واحدها: مِسْح، وهو كساء من شعر، والمراد الكفن.

(٢) السَّفود والسُّفود: عُودٌ من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشوَى، وشُعَب السفود: أسنانه التي يُغرز فيها اللحمُ للشِّواء. «معجم».

جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ** ﴾ [الأعراف:٤٠]، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِنَ السَّمَاءِ طَرْحًا، حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ». ثم قرأ: «﴿ **وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ** ﴾ [الحج:٣١]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ [لَهُ]: مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي،

سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَاكَ.

قال: «فَيُقَالَ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا.

ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

---

(١) حديث صححه الحاكم، والذهبي، وابن القيم، ثم الألباني، ومن كتابه «أحكام الجنائز» نقلته، لما أودعه رحمه الله فيه من الزيادات الكثيرة والروايات العديدة، فجزاه الله خيرًا.

وقال ابن القيم[1]: إذا كانت حياة أهل الإيمان والعمل الصالح في هذه الدار حياة طيبة، فما الظن بحياتهم في البرزخ، وقد تخلصوا من سجن الدنيا وضيقها؟! فما الظن بحياتهم في دار النعيم المقيم الذي لا يزول، وهم يَرَوْن وجه ربهم تبارك وتعالى بكرة وعشيًّا ويسمعون خطابه؟!!

❑❑❑❑❑

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٨٤).

جزاء السعي المشكور

في الآخرة

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا * مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:٥-٢٢].

قال ابن سعدي[١]: (إن هذا) الجزاء الجزيل، والعطاء

---

(١) «تفسيره» (٣٥٠/٥).

الجميل، **(كان لكم جزاءً)** على ما أسلفتموه من الأعمال، **(وكان سعيكم مشكورًا)**؛ أي: القليل منه يجعل الله لكم به من النعيم المقيم ما لا يمكن حصره. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ**﴾ [الغاشية:٨-١٦].

قال ابن سعدي[١]: **(ناعمة)**؛ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنَضِرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسُرُّوا غاية السرور.

(لسعيها) الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، **(راضية)**؛ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا، فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها **(في جنة)** جامعة لأنواع النعيم كلها، **(عالية)**، في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف، ومن فوق الغرف غرف مبنية، يُشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

---

(١) «تفسيره» (٥/٤٠٨-٤٠٩).

(**قطوفها دانية**)؛ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

(**لا تسمع فيها**)؛ أي: الجنة، (**لاغية**)؛ أي: كلمة لغو وباطل، فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع، مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، وعلى الآداب المستحسنة بين المتعاشرين، الذي يَسُرّ القلوب، ويشرح الصدور.

(**فيها عين جارية**)، وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية، التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنَّى أرادوا.

(**فيها سرر مرفوعة**)، والسرر جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفُرُش اللينة الوطيئة.

(**وأكواب موضوعة**)؛ أي: أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وُضِعت بين أيديهم، وأُعِدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

(**ونمارق مصفوفة**)؛ أي: وسائد من الحرير والإستبرق، وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صُفَّت للجلوس والاتكاء

عليها، وقد أُرِيحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم.

(وزرابي مبثوثة)، والزرابي هي: البُسُط الحسان، **(مبثوثة)**؛ أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب. اهـ

فصل

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٢].

قال ابن سعدي[١]: **(وفيها)**؛ أي: الجنة، **(ما تشتهيه وتلذ الأعين)**، وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتهته النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح، ولذته العيون، من مناظر حسنة،

---

(١) «تفسيره» (٤٥٦-٤٥٧).

وأشجار محدقة، ونعم مونقة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس:٥٧].

(**وأنتم فيها خالدون**)، وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

(**وتلك الجنة**)، الموصوفة بأكمل الصفات، هي (**التي أورثتموها بما كنتم تعملون**)؛ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع. اهـ.

وقال ابن كثير(١): (**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**)؛ أي: أعمالكم الصالحة كانت سببًا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يُدْخِل أحدًا عملُه الجنة(٢)، ولكن برحمة الله وفضله، وإنما الدرجات يُنال تفاوتها بحسب الأعمال

---

(١) «تفسيره» (١٣٤/٤).

(٢) كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا، إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللهِ [وَفَضْلٍ]» أخرجه مسلم (٢٨١٧)، وغيره، والزيادة من «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصالحات. اهـ

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور:١٧-٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧].

قال ابن كثير(١): (**وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى**)؛ أي: ليست هذه دليلًا على محبتنا لكم، ولا اعتنائنا بكم. ولهذا قال: (**إلا من آمن وعمل صالحًا**)؛ أي: إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمانُ والعمل الصالح، (**فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا**)؛ أي: تُضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبعمائة ضعف. (**وهم في الغرفات آمنون**)؛ أي: في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يُحذر منه. اهـ

---

(١) «تفسيره» (٥٤١/٣) مختصرًا.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

قال ابن كثير[١]: **(في جنة عالية)**؛ أي: رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها.

وقال ابن سعدي[٢]: ويقال لهم إكرامًا: **(كلوا واشربوا)**؛ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهي، **(هنيئًا)**؛ أي: تامًّا كاملًا من غير مكدر ولا منغص.

وذلك الجزاء حصل لكم **(بما أسلفتم في الأيام الخالية)**، من الأعمال الصالحة؛ من صلاة وصيام وصدقة وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر لله وإنابة إليه، وترك الأعمال السيئة.

فالأعمال جعلها الله سببًا لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلًا لسعادتها. اهـ

□□□□□

---

(١) «تفسيره» (٤/٤١٥).

(٢) «تفسيره» (٥/٢٩٨).

فصل
في ثناء الله عز وجل على
جزاء السعي المشكور
وحثه على تحصيله

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦].

قال ابن كثير[١]: (ونعم أجر العاملين)، يمدح تعالى الجنة. اهـ

وقال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ [العنكبوت:٥٨].

---

(١) «تفسيره» (٤٠٨/١).

قال ابن كثير[1]: (**والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفًا تجري من تحتها الأنهار**)؛ أي: لنسكننهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، يَصْرِفونها ويُجرونها حيث شاؤوا، (**خالدين فيها**)؛ أي: ماكثين فيها أبدًا، لا يبغون عنها حولًا. (**نعم أجر العاملين**): نعمت هذه الغرف أجرًا على أعمال المؤمنين. اهـ

وقال الله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾ [الزمر:٧٤].

قال ابن سعدي[2]: (**فنعم أجر العاملين**)، الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا باقيًا مستمرًّا.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يُكْرِمُ اللهُ فيها خواصَّ خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلًا، وبنى

---

(١) «تفسيره» (٣/٤١٩).

(٢) «تفسيره» (٤/٣٤٢).

أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما بعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر، ويتم الصفاء. اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌۚ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ * جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٣٠-٣٢].

قال المراغي(١): **(ولنعم دار المتقين. جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار)**؛ أي: ولنعمت الدار للمتقين، جنات إقامة، تجري من بين قصورها وأشجارها الأنهار، حسنت مستقرًّا ومقامًا.

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال: **(لهم فيها ما يشاؤون)**؛ أي: للذين أحسنوا فى هذه الدنيا فى جنات عدن ما يشاؤون، مما تشتهي أنفسهم وتقر به أعينهم، كما قال: ﴿**وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ**﴾ [الزخرف:٧١].

---

(١) «تفسيره» (١٤/٧٤-٧٥).

ثم ذكر أن هذا جزاء لهم على أعمال البر والتقوى، فقال: (**كذلك يجزي الله المتقين**)؛ أي: مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزي الله الذين اتقَوُا الشرك والمعاصي.

وفى هذا حث للمؤمنين على الاستمرار على التقوى، وحث لغيرهم على تحصيلها.

ثم وصف الله المتقين بقوله: (**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين**)؛ قال الراغب: الطيب من الناس من تَعَرَّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال، وهذا إيضاح لقول مجاهد: الطيب من تزكو أقواله وأفعاله.

وقوله: (**طيبين**)، كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعاني، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أُمِروا به، واجتنابهم كل ما نُهُوا عنه، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا، وبراءتهم من ذميم الرذائل، وتوجههم إلى حضرة القُدُس، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية[1]، ويَتْبَع

---

(١) أي: الشهوات المحرمة والمكروهة والفضول منها، وهم في اجتنابها درجات، كل بحسبه.

ذلك أنه يَطيب لهم قبضُ أرواحهم، لأنها لم تُقبض إلا مع البِشارة بالجنة، حتى كأنهم مشاهدوها، ومَنْ هذه حاله لا يألم بالموت. اهـ.

فصل

وقال الله تعالى بعد وصف نعيم أهل الجنة: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات:٦٠-٦١].

قال ابن سعدي[1]: **(إن هذا لهو الفوز العظيم)**، الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوزٌ يُطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسماوات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، وسُرُّوا برؤيته، وطَرِبوا لكلامه؟

(لمثل هذا فليعمل العاملون)، فهو أحق ما أُنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة

(١) «تفسيره» (٢٦٠/٤-٢٦١).

كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشتغل بالعمل الذي يُقَرِّب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياه إلى دار البوار؟! اهـ

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦].

قال ابن سعدي[1]: **(وفي ذلك)** النعيم المقيم، الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله، **(فليتنافس المتنافسون)**؛ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بُذِلَت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال. اهـ

□□□□□

---

(١) «تفسيره» (٣٨٨/٥).

الخاتمة

وأخيرًا، فاحرص أيها المؤمن، إذا أردت أن يكون جهدك مبرورًا، وسعيك مشكورًا، على إخلاص العمل، في السر والعلن، صغيرًا كان عملك أو كبيرًا، مبتغيًا به وجه الله تعالى، مجتنبًا مراءاة الناس، وتسميعهم، وإرادة ما عندهم، من العَرَض الداني، والزخرف الفاني.

واحرص كذلك أن يكون عملك على السنة، مقتديًا فيه بالنبي الهادي ﷺ، مجتنبًا البدع، مهما كانت.

وإلا كان عملك باطلًا، وسعيك خائبًا، كما قال الله تعالى:

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، أستغفرك وأتوب إليك.

كتبه

محمد شومان الرملي

الفهرس